د. دان ياهف*

«الأرض القديمة الجديدة»:

الرواية الخيالية لبنيامين زئيف هرتسل

إنكسار الحـــــلم

مدخل

ثمة بين المفكرين الطوباويين العديد من اليهود الذين استهوتهم الأفكار الصهيونية، القومية والطوباوية، ومن أبرزهم[١] أ. ل. لفينسكي في كتابه «رحلة إلى أرض إسرائيل» (١٨٩٢)، ومناحيم (أدموند) آيزلر في كتابه «صورة مستقبلية» (١٨٨٥) ويعقوب (جاك) بخر في روايته «مناهضة الغوييم في صهيون» (١٨٩٨)، وشالوم عليخكم في مؤلفه «مجانين» (١٩٠١)، ولعلّ القصة أو الرواية الأكثر خيالية في صدد «أرض إسرائيل» والصهيونية هي رواية بنيامين زئيف (ثيودور) هرتسل "Altneuland" «الأرض القديمة الجديدة» (١٩٠٢)، والتي شكلت الأرضية لفكرة دولة إسرائيل[٢].

وقد تأثّرت جميع هذه المؤلفات الصهيونية بأفكار ومؤلفات طوباوية قومية أخرى مثل «أطلنطيس الجديدة» لـ «فرانسيس بيكون» و«مغامرات غوليفر» لـ «سويفت» و«الأتوبيا» لـ «توماس مور» و«مدينة الشمس» لـ «توماسو كامبانلا، و«نظرة إلى الوراء» لـ «بلامي» و«أوسيانا» (هارينغتون) و«عالم جريء جديد» (أ. ل هكسلاي) «١٩٨٤» (جورج أورفول) وغيرها الكثير[٣].

أفكار هرتسل وروايته «الطنويلاند» سرعان ما لاقت انتقادات شديدة. وكان في طليعة منتقديه المفكر اليهودي «احاد هعام»**، والذي قال إن هرتسل يهمل «عامل الثقافة» وأنه كان بصهيونيته السياسية يسعى بحثاً عن الكرامة القومية[٤].

وقد عكس نقد احاد هعام ليس فقط فهماً مختلفاً حيال السياسة الصهيونية المرغوبة التي ينبغي انتهاجها، بل وعكس جملة من التحفظات المتعلقة بالعديد من الأصعدة، الشخصية والتنظيمية والثقافية[٥]. النقد الموجه لـ «هرتسل» تمحور حول الفترة الزمنية القصيرة جداً التي اقترحها هرتسل كموعد مستهدف لتجسيد رؤيته

* محاضر في كلية حولون واللد، مؤلف كتاب «طهارة السلاح»

(عام ١٩٢٣)، وانعدام إمكانية تنظيم هجرة يهودية جماعية واستيعاب أعداد كبيرة في البلاد، بمعدل ٥٠٠ إلى ٢٠٠٠ مهاجر في اليوم، والطريقة التي سيتم من خلالها شراء الأراضي اضافة الى مسألة العلاقات مع العرب[٦]، وبالأخص عملية محاكاة أفكار خيالية غريبة على الشعب اليهودي مستمدة من أفكار أوروبية وأميركية (أوروبا وأميركا بلغة ذلك الوقت)[٧]. واعتبرت رواية هرتسل محاكاة على غرار تقليد القرود دون أي مضمون قومي ذاتي، فرائحة «العبودية داخل الحرية» تفوح من كل الزوايا.

كذلك واجهت رواية «الأرض القديمة الجديدة» انتقادات من جانب زعماء آخرين مثل شمرياهو لاڤين، حاييم وايزمان، فيبل ومارتين بوبر (وهم أعضاء في الجناح الديمقراطي الذي شكل معارضة لهرتسل).

احاد هعام، الذي واصل حملته الانتقادية، كتب يقول إن رواية هرتسل الخيالية تتحدث عن دولة ستكون مجرد «مستعمرة أوروبية في آسيا»، مستعمرة تحاكي في جميع أوجه حياتها مجرد خطة أو مشروع مستورد من هناك (من أوروبا)[٨].

رواية هرتسل الخيالية لم تناقش بشكل مفصّل المسألة العربية بصورة عامة ومسألة القومية العربية بصورة خاصة، وكما رأينا فإن الجانب أو الطرف اليهودي قدم في الغالب في صورة السيد الوصي، فيما قدم الطرف العربي كطرف خانع ذليل.

ميخا برديتسبسكي ينضم أيضاً إلى المنتقدين من حيث أنه لم يجد في مشروع هرتسل أي حل اجتماعي. فرواية أو فكرة هرتسل الخيالية «ليست إلا سذاجة خيالية أو لعبة اجتماعية تنبؤية في يد كاتب»[٩].

لقد أوجد هرتسل بشخصيته وبروايته علاقة بين صحوة أو ثورة دفينة وبين حركة سياسية ثورية، بين المسيحانية الدينية (لُقّبَ هرتسل بـ «ملك اليهود» و«مسيح بن داڤيد») والمسيحانية السياسية – العلمانية، بين الطوباوية الدينية والطوباوية السياسية. وقد اعتاد معارف هرتسل على مناداته في فترة شبابه، عندما كان عضواً في نادي الطلبة الجامعيين الألماني (البايا) بلقب «أمير الجليل» فيما دعاه الحاخام الرئيسي لـ بلغاريا بـ «المسيح – همشيح».

كتب هرتسل روايته «الطنويلاند» وهو يعيش في أوروبا التي كانت في ذروة بريقها وازدهارها، أوروبا البرجوازية الغارقة في الملذات، دون أي إلمام بالواقع القائم في «أرض إسرائيل»[١٠].

«الطنويلاند»: الفكرة ونتائجها[١١]

دولة نموذجية: تسامح، سلام وتعددية قومية

الدولة اليهودية التي تحدثت عنها رواية «الطنويلاند»، دولة نموذجية ذات غاية وخصوصية. فهي ملتزمة بأن تكون منارة للأمم غير اليهودية (الـ «غوييم») وأن يكون شعبها شعب متفوق. لم يكن هرتسل يتطلع إلى دولة «طبيعية» أو اعتيادية، وإنما إلى «اختبار» أو «تجربة» لفائدة البشرية قاطبة، بحيث تشكل مثل هذه الدولة – المشروع، مرشداً ونبراساً للعالم أجمع، فهي «فكرة مثالية لا نهائية» وسعي مطلق ودائب نحو المطلق[١٢]. لقد رأى هرتسل في الدولة اليهودية، نموذجاً يحتذى به لدول العالم الثالث، حيث أشار في روايته «الطنويلاند» إلى أن التجربة الإسرائيلية قد تشكّل نموذجاً لأمم وقوميات جديدة ناهضة، كالسود في أفريقيا. كان من المفروض بالدولة الصهيونية الطوباوية أن تتحلى بمزايا التسامح والسلام. التسامح تجاه بني البشر عامة والسعي نحو تآخي الشعوب والسلم العالمي[١٣]. دولة تولي معاملة خاصة ونظرة تعاطف للمقيم والغريب، لليهودي وغير اليهودي، لأبناء الأمم والديانات الأخرى ولكل مخلوق في صورة إنسان.

وقد أنشأ هرتسل يقول:

«بديهي أننا سنتعامل بتسامح واحترام مع أبناء الديانات الأخرى وسوف نتخذ وسائل وإجراءات صارمة جداً لحماية وصون ممتلكاتهم وكرامتهم وحريتهم. فنحن بذلك أيضاً سنقدم للعالم أجمع مثالاً رائعاً... وصيتي لشعب إسرائيل: ابنوا دولتكم بحيث يشعر الغريب الذي يعيش بين ظهرانيكم بالرضى والراحة»[١٤].

وكتب هرتسل في مكان آخر من روايته ذاتها:

«إنني ورفاقي الذين يشاطروننني الرأي لا نميّز بين الناس. نحن لا نسأل الإنسان عن دينه وأصله العرقي فما يهمنا هو أنه إنسان فقط، مثلنا» (اقتباس لأقوال دافيد لينفاك).

القدس هي «عاصمة السلام»، ففيها يوجد مركز عالمي لمعالجة الكوارث، يقع في معبد (هيكل) السلام الموجود في المدينة: «وقد غمر قلوب السائرين في الموكب إحساس بالسموّ أثناء ولوجهم أجواء السلام والسكينة في المدينة المقدسة.. كانت هناك فسحة مربوعة كبيرة تحتل معبد (هيكل) السلام والذي كانت تعقد فيه مؤتمرات دولية لمحبي السلام.. كانت البلدة القديمة أشبه بمنطقة دولية يخيل أن الشعوب كافة ترى فيها موطناً لها. ففي هذا المكان يوجد مهد

ثيودور هرتسل

وموئل أبسط شعور إنساني: المعاناة..».

علينا أن نتبصّر اليوم إلى أي مدى ابتعدنا عن هذا النموذج الطوباوي، لقد بلغ الأمر حد اقتيادنا إلى المحكمة الدولية بتهمة ارتكاب جرائم حرب، وباتت دولتنا أقرب إلى أشد الدول طغياناً ورجعية بين بلدان العالم الثالث، التي تنحصر علاقاتنا معها في تجارة وبيع أسلحة الفتك والدمار لحكامها المستبدين الفاسدين (كما فعل يائير كلاين وأمثاله)، يجب أن نتبصّر إلى أي حدّ أدرنا الظهر للتسامح، وأين أصبحنا من تآخي الشعوب؟! فنحن نلاحق «الساكن والغريب» منغصين عليهم حياتهم (الفلاشمورا.. والمهاجرون الروس) ومعاملتنا للعرب الذين يعيشون بين ظهرانينا باتت من أشهر الفضائح وأكثرها شيوعاً. أما القدس فقد تحولت إلى مدينة دامية محاصرة تحيطها وتقطعها أسوار تفرق وتفصل بين الإنسان وأسرته، وبين الإنسان ودائرة حياته.

سمات الدولة اليهودية الجديدة

تخلو رواية «الأرض القديمة الجديدة» من تناول مباشر لماهية الدولة ككيان سياسي، وهي في المقابل تولي اهتماماً أكبر لوصف ماهية هذه الدولة من الناحيتين الروحية والاجتماعية.

«نحن لسنا دولة، نحن جمهور، جمهور صنع بشكل جديد، لكننا سنتحد ونتكاتف من أجل هدف قديم جداً... ونحن في الحقيقة مجتمع تعاوني» (يوسيف ليفي). الدولة اليهودية (في رواية هرتسل) ليس لها حدود واضحة ومحددة من ناحية جغرافية. فبقعة الدولة هي، ظاهرياً، «أرض إسرائيل الكبرى» بموجب الوعد الإلهي، لكنه لم تجر الإشارة إلى حدود معينة للدولة اليهودية كما هو الحال بالنسبة لأي كيان سياسي، فالحدود هنا بقيت مبهمة[١٥].

ووفقاً للرواية ذاتها فإن نظام الحكم (في الدولة اليهودية) هو نظام ديمقراطي يلتزم بتنظيم انتخابات عامة حرة ومفتوحة، على أن يكون المنتخبون الذين يقفون على رأس مؤسسات الحكم في الدولة اليهودية هم النخبة المثقفة في المجتمع (وهي فكرة مستوحاة من أفلاطون).

ومن المفروض أن يقوم المجتمع اليهودي على أسس ومبادئ مجتمع الرفاه العصري، فالمجتمع الطوباوي مجتمع متحرر من مظاهر الفقر والاستغلال والاغتراب وانعدام المساواة. مجتمع ليبرالي منفتح، لكنه يضمن توزيعاً متساوياً وعادلاً وهو ما يتطلب تخطيطاً ورقابة مركزيين. والمجتمع في الدولة اليهودية الجديدة منظم كجهاز اقتصادي، اجتماعي وثقافي، بحيث تشكل السيطرة الاقتصادية المركزية، التي تقوم أيضاً على تأميم الموارد الأساسية، مصدراً لقوة وهيبة هذا الجهاز (الاجتماعي – الاقتصادي – الثقافي)[١٦].

لقد كان هرتسل مصيباً إلى حد كبير في تحليله للشعب اليهودي، فنحن لا نتصرف كدولة سيادية فخورة، لها حدود آمنة، ومعترف بها، وإنما نسعى طوال الوقت إلى توسيع هذه الحدود عَبر صراعات وحروب لا نهاية لها. صحيح أن دولتنا هي من ناحية رسمية دولة ديمقراطية، لكن حدود هذه الديمقراطية مخترقة ومستباحة كلياً فضلاً عن أن الغشاء الذي يحميها غشاء واهن للغاية. لقد ابتعدنا كثيراً عن المجتمع القائم على الشراكة والعون المتبادل والالتزام وبتنا أقرب إلى المجتمع «القبلي» الذي ينخره التمزّق والانقسام[١٧].

المسألة العربية بين الطوباوية والواقع

نزل هرتسل عند زيارته للبلاد، في ميناء يافا. وقد تركت المدينة انطباعاً سيئاً لدى هرتسل ومن معه، إذ بدا كل شيء فيها مهملاً

ويميز هرتسل بين تحسين أوضاع العرب كأفراد (مساواة) وبين مسألة العرب كجمهور. فالموضوع الحساس المتعلق بالطرد والتشريد المحتمل للسكان العرب نتيجة للهجرة اليهودية ظل موضوعاً هامشياً، غير أن هرتسل كتب في مذكراته يقول:

«حالما نتمكن من امتلاك البلاد فإننا سنجلب على الفور منفعة مادية للدولة التي ستستقبلنا. الأراضي الخاصة في أجزاء البلاد المعطاة لنا، علينا أن نقوم بانتزاعها تدريجياً من أيدي أصحابها. أما السكان الفقراء فسوف نسعى إلى ترحيلهم بهدوء إلى خارج الحدود.. ولكننا سنحرمهم في دولتنا الخاصة من أية إمكانية للعمل.. نقل الأراضي إلى ملكيتنا وطرد الفقراء من دولتنا يجب أن يتما بهدوء وحذر»[٢٤].

لدرجة مثيرة للشفقة. فالصعود إلى الشاطئ في ميناء المدينة كان مضنياً.. وكانت الأزقة والطرقات تحفل بالأوساخ والروائح الكريهة، فيما بدا المكان برمته يئنّ تحت وطأة محنة شرقية متعددة الأطياف[١٨].

وتمثل العرب (في الرواية) شخصية «رشيد بيك» وهو شاب ميسور حاصل على شهادة الدكتوراه في الكيمياء، يضع هرتسل على لسانه العبارة الصهيونية المألوفة:

«إنه واحد من أولئك الناس الذين أدركوا فوراً الفائدة المتوقعة من الهجرة اليهودية، وقد شارك في ازدهارنا الاقتصادي وصار ثرياً، رشيد أصبح عضواً في مجتمعنا الجديد»[١٩].

وفي حوار بين شتاينيك ورشيد بيك، يقول الأول:

«لقد جلبنا، نحن اليهود، الثقافة والحضارة إلى هذه البلاد».

ويرد عليه رشيد بيك قائلاً:

«اسمح لي يا عزيزي! فهذه الحضارة كانت موجودة هنا قبل قدومكم، فوالدي زرع منذ وقت بعيد عدداً كبيراً من أشجار البرتقال».

ولكنه (رشيد) يقرّ بخنوع كبير:

«مداخيلنا ازدادت بدرجة كبيرة، كما أن صادراتنا من البرتقال تضاعفت عشرات المرّات. أجل فقد اكتسب كل شيء قيمة أكبر بفضل هجرتكم».

وحول سؤال كينغسكورت:

«ألم تؤد هجرة اليهود إلى تدمير مكانة السكان السابقين في فلسطين؟ ألم يضطروا لمغادرة البلاد؟ وأقصد هنا الجماهير الغفيرة. فحقيقة كون بعض الأفراد حققوا فائدة من الأمر لا تثبت شيئاً».

يرد رشيد بخنوع ورياء كبيرين:

«لقد عاد الأمر علينا جميعاً بالخير والمنفعة. بديهي أن المستفيدين كانوا بالدرجة الأولى أصحاب الأملاك والعقارات الذين تمكنوا من بيع أراضيهم للمجتمع اليهودي بأسعار مرتفعة»[٢٠]. ويعترف رشيد بيك أنه يتعين عليه كشرط لقبوله في «المجتمع الجديد» قبول أنظمة هذا المجتمع المتعلقة بالأراضي، بمعنى تخلي الأعضاء عن الملكية الخاصة في هذا المجال.

وحول سؤال شتاينيك:

«ما مصير السكان القدماء الذين لم تكن لديهم أية ملكية خاصة، ماذا حصل مع جموع المسلمين العرب؟»

يجيب رشيد قائلاً:

«الناس المعدومون، والذين بالتالي لم يكن لديهم شيء يخسرونه، كان من الطبيعي فقط أن يجنوا منفعة وفوائد، وفي الواقع فقد كسبوا فرصة عمل، وتغذية أحسن ووضعاً اقتصادي أفضل».

ويضيف رشيد مستطرداً:

«وهل يمكن لك أن ترى في إنسان لصّاً مع أنه لا يأخذ منك شيئاً بل على العكس يعطيك مما لديه؟

لقد تسبب اليهود في ثرائنا، فلماذا نبغضهم أو نغضب عليهم إذاً؟ إنهم يعيشون معنا كإخوة، فما الداعي إذاً لأن نمقتهم؟!»[٢١].

رواية هرتسل الخيالية لم تناقش بشكل مفصّل المسألة العربية بصورة عامة ومسألة القومية العربية بصورة خاصة، وكما رأينا فإن الجانب أو الطرف اليهودي قدم في الغالب في صورة السيد الوصي، فيما قدم الطرف العربي كطرف خانع ذليل.

يقول برديتسبسكي في انتقاده لـ «برنامجنا الصهيوني» لـ أوسيشكين:

«يتضح للمرة الأولى أن هناك أيضاً عرباً في أرض آبائنا وأنهم يملكون جزءاً كبيراً من الأرض»[٢٢].

رواية «الأرض القديمة الجديدة» وباقي القصص الخيالية الصهيونية لا تشير إلى سكان البلاد العرب باعتبارهم كياناً قومياً، أما إمكانية نشوب صراع عنيف مع هؤلاء السكان فقد جرى التلميح لها في حالات نادرة فقط.

وقد كتب «احاد هعام» أن من الوهم والخطأ الاعتقاد بأن «أرض إسرائيل اليهودية» ستتحوّل إلى سويسرا الشرق الأوسط المسلم.

في رواية «الأرض القديمة الجديدة» يتحدث هرتسل عن عائلة عربية، لكنه يتجاهل عملياً إمكانية نشوب توترات ونزاعات قومية كامنة أو محتملة. ويركز هرتسل على إبراز المزايا والمنافع الاقتصادية التي سيحصل عليها العرب نتيجة للتنمية السريعة التي سيأتي بها اليهود للدولة، ولعلاقات الصداقة التي ستسود بين العائلات والأسر العربية واليهودية.[٢٣]

وتصوّر الرواية الطوباوية سكان البلاد العرب كأُناس متخلّفين، ومن هنا لهجة أو نبرة الوصاية والتسيّد في الرواية التي تضع ثقافة الشرق دون الثقافة الغربية:

«لقد جلبنا نحن اليهود الثقافة والحضارة...». يقول أحد أبطال الرواية.

ويميز هرتسل بين تحسين أوضاع العرب كأفراد (مساواة) وبين مسألة العرب كجمهور. فالموضوع الحساس المتعلق بالطرد والتشريد المحتمل للسكان العرب نتيجة للهجرة اليهودية ظل موضوعاً هامشياً، غير أن هرتسل كتب في مذكراته يقول:

«حالما نتمكن من امتلاك البلاد فإننا سنجلب على الفور منفعة مادية للدولة التي ستستقبلنا. الأراضي الخاصة في أجزاء البلاد المعطاة لنا، علينا أن نقوم بانتزاعها تدريجياً من أيدي أصحابها. أما السكان الفقراء فسوف نسعى إلى ترحيلهم بهدوء إلى خارج الحدود.. ولكننا سنحرمهم في دولتنا الخاصة من أية إمكانية للعمل.. نقل الأراضي إلى ملكيتنا وطرد الفقراء من دولتنا يجب أن يتما بهدوء وحذر»[٢٤].

الجيش والحرب

يقول «فريدريك» في رواية «الأرض القديمة الجديدة»: «جيشكم مؤلف من ضباط محترفين ومن متطوعين».

ويرد عليه داڤيد:

الجيش الاسرائيلي.. الصورة الحقيقية

«لا مجال للمقارنة، لأن المجتمع الجديد ليس فيه جيش محارب»[٢٥].

ويرى هرتسل أنه ينبغي تعيين حدود واضحة المعالم للجيش وأن هذا الجيش يجب أن يخضع لإشراف مدني من طرف الدولة وأن يتواجد داخل معسكرات وثكنات خاصة.. كذلك يؤكد هرتسل على وجوب انتهاج خدمة عامة، إذ يتعين على الرجال والنساء على حد سواء تكريس مدة عامين للخدمة العامة، من سن ١٨ وحتى عشرين عاماً. أي أن هرتسل لا يتصور مطلقاً في روايته الخيالية إمكانية لنشوب حروب (لا تزال هذه الحروب مستمرة منذ أكثر من ١٢٠ عاماً) تقوض أسس الدولة وتمزّق مجتمعها[٢٦].

الدين، الثقافة، الجمال والحركة النسائية

ينادي هرتسل بضرورة فصل الدين عن الدولة ويؤكد على طابع التعددية والحرية للدولة اليهودية، حيث يقول: «نحن لسنا بصدد تأسيس نظام ثيوقراطي، بل دولة مدنية عصرية ومتسامحة.. لن نسمح مطلقاً لشهوات سلطوية رجعية بأن تستيقظ في قلوب حاخاماتنا. سنحرص على إبقائهم داخل الكنس...»[٢٧]. فالحاخامات والجنرالات والدين والجيش سيتم إبقاؤهم جميعاً بعيداً عن مواقع التأثير على إدارة وتسيير شؤون الدولة، وقد كتب هرتسل في روايته

هرتسل حلم بدولة مثالية: الدولة بنت هذا الجدار

الطوباوية يقول:

«مسائل الإيمان الديني أخرجت كلياً من دائرة التأثير العلني. فليس من شأن أو اختصاص المجتمع إذا كان فلان من الناس ينشد بلوغ لحظة السمو الروحي، التي تربطنا بإله الكون وبمعبد أو مسجد، بمتحف فني أو في حفل موسيقي.

فهذا الموضوع يخضع لرغبة وأهواء كل فرد من أفراد المجتمع»[٢٨].

وعند حديثه عن ثقافة المدن والقرى يستحضر هرتسل إلى مخيّلته العواصم الأوروبية:

«من الواضح أنه تلتقي هنا سبل جميع القوميات.. فالملابس الغربية مثلها كمثل القلنسوة، فالمدينة (حيفا) عموماً تترك انطباعاً أوروبياً واضحاً. لقد ظننا أننا نزلنا في أحد الموانئ الكبيرة بإيطاليا»[٢٩]. كذلك فإن «التعليم بكل مراحله، بما في ذلك الجامعي، قدم مجاناً لأبناء مجتمعنا كافة»[٣٠].

لم يتصور هرتسل في مخيّلته إمكانية نشوء ثقافة يهودية محلية، إسرائيلية، تسعى للاندماج في المنطقة وإلى تنمية سمات محلية أكثر منها عالمية غربية (متأمركة)، ثقافة تستند إلى التجربة الحياتية داخل «أرض إسرائيل»، على اختلاف ارتباطاتها بالبقعة الجغرافية واللغة والبيئة والمنطقة.

وكحال غالبية مؤلفي الروايات الطوباوية فإن هرتسل لم يعش في البلاد ولم يتعرف عليها عن قرب، لذلك فإنه لم يكن يستطيع تطوير أرضية جديدة لهوية إسرائيلية محلية، على الرغم من محاولته الابتعاد بنفسه عن التقاليد الدينية والسعي إلى رسم تصوّرات ممكنة لثقافة علمانية جديدة.

وفي النواحي الجمالية للحياة، يحاول هرتسل محاكاة البلدان التي عاش فيها تجاربه الحياتية (هنغاريا، النمسا وألمانيا...)، فمدن الشواطئ التي يصفها (حيفا، عكا، يافا وطبريا) تُذكر أبطال روايته بالريڤيرا الفرنسية، بل وتتفوق عليها جمالاً:

«فالمباني هنا أحدث وأكثر نظافة، كما أن الحركة في الشوارع، رغم كل ما تنبض به من حياة زاخرة وحيوية، بدت أقلّ صخباً، ولعلّ سبب ذلك يعود إلى خاصية الاتزان والاعتدال الجانّين». وفي دولة اليهود الطوباوية يرتدي الناس ملابس فاخرة كالتي يرتديها أبناء طبقة النبلاء في أوروبا، وفي المساء يذهبون إلى المسرح وهم يرتدون ملابس السهرة والقفازات البيضاء[٣١].

وتتسم نظرة هرتسل لمكانة النساء بالازدواجية، أو التناقض، فهو من جهة يرى النساء «في المجتمع الجديد» متساويات في الحقوق (مع الرجل)، ويتمتعن بحق الانتخاب والترشُّح، حتى وإن كن لا يجسّدن بالضرورة هذا الحق:

«إياك أن تظن أن دورهن كربّات بيوت قد أُلغي أو غُبِن جرّاء ذلك، فزوجتي مثلاً لا تذهب أبداً إلى اجتماعات أو مؤتمرات» (لفنبرغ)[٣٢].

ويمضي داڤيد لفنبرغ في وصفه لدور النساء:

«النساء لدينا مُتزنات بما فيه الكفاية كي ينأين عن الانشغال باحتياجات ومشاغل الناس على حساب مصلحتهن الخاصة»[٣٣].

ويضيف في موضع آخر:

«الفتيات لا يشاركن في رحلات من هذا النوع. نحن نعتقد أن مكان الفتاة المراهقة هو بجانب أمها، حتى ولو تعلمت مهنة حقيقية تتطلب منها القيام بواجباتها تجاه المجتمع الجديد[٣٤].

المرأة العربية أيضاً تحافظ على تقاليدها وواجباتها البيتية. فـ«رشيد بيك» الأرستقراطي لا يسمح لزوجته بالخروج من عتبة منزلها، حتى أن

«سارة» زوجة داڤيد ليتفاك (في الرواية) تحاول إسنادها ودعمها:

«لكن أرجوك ألاّ تظنّ بأن فاطمة ليست سعيدة لهذا السبب. فهو زواج سعيد بالتأكيد ولديهما اطفال رائعون. غير ان الزوجة لا تبارح عزلتها الرتيبة. ولا شك ان ذلك هو شكل من اشكال السعادة ايضا.. ولو كانت هذه رغبة زوجي لكنت قبلت بالعيش بالطريقة التي تعيش بها فاطمة»[٣٥].

من الطوباوية الى الواقعية

ثمة جوانب كثيرة في حلم هرتسل الطوباوي، حسبما عبرت عن نفسها في رواية «الارض القديمة الجديدة» و «الدولة اليهودية» وفي كتاباته ومذكراته، لم تجد طريقها الى التحقق بعد مرور نحو مئة عام على كتابتها وثمانين عاماً منذ بدء تجسيد الرواية الطوباوية (١٩٢٣).

فـ «تجربة» انشاء دولة نموذجية تشكل مثالاً وقدوة للبشرية جمعاء، انتهت الى الفشل.

فنحن (المقصود اسرائيل كدولة وكمجتمع) في احسن الاحوال نحاكي ثقافات اجنبية، وفي اسوأها، غارقون في قاع مستنقع ثقافي اجتماعي موحل.

مستوى التسامح الديني والسياسي – المدني لدينا بات هابطاً الى حد اغتيال رئيس حكومة، والتهديد بالاعتداء على حياة قادة وزعماء آخرين. والقدس تحولت الى رمز للصراع والتناحر بين الاديان والشعوب المختلفة التي تعيش في المدينة واكنافها[٣٦].

لم نفلح طوال ٥٦ عاماً في رسم حدود الدولة بصورة نهائية، وبذلك فإن خريطة التفكير والعقل تتغير من حين الى آخر ومن مجموعة سكانية الى اخرى.

ممثلونا في الحكومة والكنيست ليسوا بالذات من الصفوة المثقفة وفق ما نادت به نظرية هرتسل.

المسألة العربية لم تبحث بتعمق طوال تاريخ الصهيونية ولغاية الآن لا يوجد اعتراف بحقوق وطنية للشعب العربي الذي يعيش بين ظهرانينا[٣٧].

الجيش والدين يحتلان مواقع مفصلية في غاية الاهمية، في حياتنا اليومية ويؤثران على واقعنا وتجاربنا الاجتماعية والاقتصادية، فيما نحن نبتعد اكثر فأكثر عن سلوكيات وانماط المجتمع المدني [٣٨].

وعوضاً عن وجود جهاز تعليم مجاني للجميع، اخذت تظهر اكثر فأكثر فجوات وفوارق بين طلبة المدن وطلبة الضواحي والريف، وبين اليهود الغربيين (الاشكناز) والشرقيين (السفارديم)، وبين اليهود والعرب.. الخ. والفجوات تلاحظ بشكل اساسي بناء على الاصول العرقية للآباء، وبالتالي انتقال التخلف والقصور التعليمي – التربوي الى الأجيال المقبلة[٣٩].

ملاحظات ومراجع

١- راحيل البويم – درور «غد الأمس» جزئين. القدس: ياد اسحق بن تسبي، ١٩٩٣.

٢- تيودور هرتسل (الارض القديمة الجديدة) حيفا: شركة اصدارات الكتب، ١٩٦١.

٣- حول وصف الروايات الطوباوية انظر: يورام برونوبسكي «لا وجود لطوباويات جيدة» – هآرتس ١٩٩٦/١/١٩.

يوتام روبيني «دليل سياحي عن العوالم الخيالية في الادب» هآرتس ٢٠٠٠/١٠/١٣ ص د٣

البويم – درور. نفس المصدر السابق ص٤٣.

٤- نفس المصدر ص٦٧، وانظر ايضاً:

ي. كاتس. لتوضيح مفهوم «المبشرون بالصهيونية».

«العودة الى صهيون» أ (١٩٥٠) ص٥١ – ١٠٥.

عاموس أيالون «هرتسل» ص٣٨٥ – ٣٨٦.

٥- شلومو ابنيري «الفكرة الصهيونية على اختلاف تلاوينها»

تل ابيب: عام عوفيد ١٩٨٠ ص ٤٩ – ٧١.

٦- دان ياهف «منابع الصراع الصهيوني – الفلسطيني: الكتاب الذي لم يدرس ولم يحك ولم يعرف» تل ابيب: اصدار الكاتب (٢٠٠٣)

٧- أ. ي برور «يهودا ييبلس من كورفو: من باعثي فجر النهضة القومية». سيناي (١٩٤٣ – ١٩٤٤).

٨- راحيل البويم – درور «همزراحي والحاخام كوك: الصراع حول الرؤى والقيادة». «التعليم العبري في ارض اسرائيل ١٩١٤ – ١٩٢٠» ب. القدس: ١٩٩٠ ص٢٨٦ – ٢٩٩.

عاموس ايالون «هرتسل» ص١٥٢.

٩- ي. ي راينس «فجر جديد يطل على صهيون». ڤيلنا ص ٢٧٨ – (١٩٠٢).

١٠- راحيل البويم – درور «احرار من الشوفينية القومية» «عتون ٧٧» ك/ ٢٠٨ (١٩٩٧) ص ١٧ – ١٩ و ٤٢

ابنيري. نفس المصدر ص ١٠٥ – ١١٨.

عاموس ايالون «هرتسل» ص ١٢ – ١٤٦ و ٢٢٤.

ب. ميخائيل «حتى التاريخ غير صحيح» «يديعوت احرونوت». ملحق السبت ١٢/١٢/ ٢٠٠٣ ص٩.

١١- التحليل حسب «الارض القديمة الجديدة» ترجمة شموئيل شنيتسر ١٩٦١ و «الارض القديمة الجديدة» ترجمة دوف كمحي حسب:

Theodor Herzl. Altneuland. Leipzip, 1902

١٢- مؤلفات هرتسل، ب. تل ابيب ١٩٦٠.

يوسيف ندبا «نظرية هرتسل السياسية». «هأوما» ١٢، مجلة رقم ٣ (٤١) ايلول ١٩٧٤ ص ٣٥٦ – ٣٧٤.

عاموس ايالون «هرتسل» ص١٧٠.

١٣ – ايلي فودا «اسرائيل تقول لا مرة اخرى» هآرتس ٢٠٠٣/١٢/٨

١٤ – «مؤلفات هرتسل» ب ص ٧١، ج ص ٢٢٠.

١٥ – اليوم ايضاً لا تزال الحدود الشرقية غير واضحة: نهر الاردن، ام «الخط الاخضر» (١٩٦٧) ام: «جدار الفصل»؟ وهل تعتبر هضبة الجولان والقدس الشرقية داخل حدود دولة اسرائيل ام لا؟ حسب قوانين الكنيست – نعم، حسب القوانين الدولية – لا؟ وما هي المكانة المحددة او الدقيقة لمناطق الضفة الغربية وقطاع غزة؟

عاموس ايالون «هرتسل» ص ١٩٥ و ٢١٩.

١٦ – س. فنكرت «مشروع مياه قطري في الارض القديمة الجديدة: وهرتسل ومهندسه للمياه (ابرهام بوركارت)».

«دافار» ١٩٥٩/٧/٢٤.

دان ياهف «مشروع المياه: مئة عام على حلم لم يتحقق». «المياه في عهد السلام.. تل ابيب: سيمنار هكيبوتسيم، ١٩٩٨، ص ١٢٦ – ١٣٠.

المياه – الهندسة المائية (١٩٩٥) ص ١٥ – ٢٠.

دان ياهف «بنحاس، روتنبرغ – مهندس الكهرباء» – «بنيان فأدر يخلوت. ٨٦» (٢٠٠٣) ص ٥٢ – ٥٥.

أ. زهابي – غولدهامر «هرتسل وفكرة الاستيطان التعاوني» (فركي هبوعيل هتسعير) (١٢) عدد ٢٢.

١٧ – حافا عتسيوني – هليفي «بلاد ممزقة: هل الحرب الثقافية حتمية؟ «كنار سابا: آرييه نير ٢٠٠٠.

باروخ كيمر لينغ «نهاية حكم الاحوساليم» القدس: كيتر ٢٠٠١

١٨ – «الارض القديمة الجديدة» (ترجمة: شموئيل شنايتسر) ص٣٩، بخلاف تام لهذا الوصف، فقد كانت يافا مدينة جميلة منذ مطلع القرن العشرين، انظر: روث كرك «يافا ١٧٩٩ – ١٩١٧» القدس: ياد اسحق بن تسبي ١٩٨٤.

دان ياهف «يافا عروس البحر» تل ابيب: «تموز» ٢٠٠٤.

١٩ – «الارض القديمة الجديدة» ص٦٢.

٢٠ – نفس المصدر ص ١٠٢ – ١٠٣.

عاموس ايالون «هرتسل» ص ٢٠٤.

٢١ – «الارض القديمة الجديدة» ص ١٠٨، وانظر لأجل المقارنة: عزمي بشارة «حول مسألة الاقلية الفلسطينية في اسرائيل».

(تيؤريا فبكورت – ٣) ١٩٩٣ ص ٧ – ٢٠

يوءاب بيلد «غرباء في اليوتوبيا: المكانة المدنية للفلسطينيين في اسرائيل [تيئوريا فبكورت ٣] ١٩٩٣ ص ٢١ – ٣٥.

دافيد غروسمان «الغائبون الحاضرون» تل ابيب: الكيبوتس الموحد ١٩٩٢.

شارلز كيمن «بعد النكبة – العرب في دولة اسرائيل ١٩٤٨ – ١٩٥٠» [محبروت لمحكار فبكورت ١٠] ١٩٨٤.

٢٢ – م. برديتسبسكي «من ارض اسرائيل الى مجرد ارض» – مقالات ميخايوسيف بن غوريون – تل ابيب: ١٩٥٢ ص ف. أ – ف. ج.

اسحق افشتاين «المسألة المفقودة» – (هشيلوح) ١٩٠٦ – ١٩٠٧.

يوسيف غوري «المسألة العربية والمشكلة اليهودية» تل ابيب: عام عوفيد ١٩٨٥ ص ٤٧ – ٥٥.

عاموس ايالون «هرتسل» ص ٢٩١ – ٢٩٢, ٣٢١, ٣٤٣ – ٣٤٤.

٢٣ – راحيل البويم – درور «غد الامس» ص١٦٧.

٢٤ – ثيودور هرتسل «المذكرات – أ» تل ابيب: ١٩٦٠ ص٧١.

وفي الحقيقة فقد تبنى معظم الزعماء الصهيونيين سياسة الترانسفير، انظر: دافيد بن غوريون – بروتوكول جلسة ادارة الوكالة اليهودية واللجنة السياسية التابعة لـ «اللجنة التنفيذية الصهيونية» بتاريخ ١٩٣٨/٦/١٢ ارشيف ص.م

28/S/100; S100/ 42 B, S 100/ 43 B.

دان ياهف «فكرة الترانسفير: قولاً وعملاً» [عتون ٧٧] أيار ٢٠٠٢ ص ٢٦ – ٢٩.

[مطعان ٨] ٢٠٠٣ ص ٩ – ٣١.

٢٥ – «الارض القديمة الجديدة» ص ٧١.

٢٦ – مولخي غولاني «الحروب لا تحدث من تلقاء نفسها: عن الذاكرة والقوة والاختيار» بن شيمن: مودان ٢٠٠٢.

ايلان بابه «التأريخ الجديد لحرب ١٩٤٨» [تيئوريا فبكورت ٣] ١٩٩٣ ص ٩٩ – ١١٣.

٢٧ – بنيامين زئيف هرتسل «دولة اليهود» (ترجمة: م. يونيلي) تل ابيب: ١٩٧٧ ص٩٩.

٢٨ – «مؤلفات هرتسل – ب» تل ابيب: ١٩٦٠ ص٤١.

شلومو أبنيري «أمة حسب الديانة» هآرتس ١٩٩٧/١/١٠ ص = ب٧.

٢٩ – «الأرض القديمة الجديدة» (ص٥٦).

٣٠ – نفس المصدر (ص٧١).

٣١ – «مؤلفات هرتسل /ب»، نفس المصدر (ص١٤٨هـ١٠)

٣٢ – «الأرض القديمة الجديدة» (ص٦٧).

٣٣ – نفس المصدر (ص ٦٨).

٣٤ – نفس المصدر (ص ١٨٢).

٣٥ – نفس المصدر والصفحة.

٣٦ – ميرون بينفنستي «القدس – مدينة وفي قلبها سور» – تل ابيب: الكيبوتس الموحد ١٩٨١.

موشيه هيرش ودبورا هاوس – كولونيل «القدس الى أين؟ اقتراحات بشأن مستقبل المدينة» القدس: معهد القدس للدراسات الاسرائيلية، ١٩٩٤.

٣٧ – «وثيقة الاستقلال» لم تتضمن أيضاً أي ذكر للديمقراطية والحقوق القومية للمجموعات العرقية المختلفة، ولا سيما حقوق المجموعة العربية.

٣٨ – يوءاب بيلد وعادي أوفير (محرران) «اسرائيل – من مجتمع مُجنّد الى مجتمع مدني» القدس: معهد فان لير والكيبوتس الموحد ٢٠٠١.

يغئال ليشي «جيش آخر لاسرائيل: عسكرتارية مادية في اسرائيل» تل ابيب: «يديعوت احرونوت» ٢٠٠٣.

٣٩ – أنظر دراسة شموئيل شاي، مومي دهان ونعيمقاتسيون، وتامي طرابلسي حداد «المَخرج» «يديعوت احرونوت» ٢٠٠٤/٢/٢ (ص ٦–٧).

نفس المصدر، يشير البروفيسور سامي سموحة الى ان ذلك يشكل «فشل الصهيونية».

مصادر:

– ايالون عاموس «هرتسل» تل ابيب: عام عوفيد ١٩٧٥.

– البويم – درور راحيل «غد الأمس» جزئين.

القدس: ياد اسحق بن تسبي ١٩٩٣.

– هرتسل نيودور «الطنويلاند – الارض القديمة الجديدة».

– حيفا: الشركة لاصدارات الكتب ١٩٦١.

– «مؤلفات هرتسل» القدس: «معاريف» و«دافار» ١٩٦٠ – ١٩٦١.

– «مؤلفات صهيونية» القدس: ١٩٥٥.